



الدفاع عن النفس زرعة نفسية تلون افكارنا وتوجه سلوكنا

ليس الدفاع عن النفس بالاياب والاضفار او ما يقوم مقامها ما بني ان نصفه او تنبه اليه في هذا المقال. فهذا اوضح من ان يحتاج الى وصفه او التنبه اليه . انما الذي تريد ان نصفه هنا هو ظاهرة نفسية لها في تلون حياتنا العقلية وفي توجيه سلوكنا اثر اعمر واعم مما نستطيع ان نصف او نحب ان نصرف به . هذه الظاهرة هي ظاهرة الدفاع عن النفس ذلك الدفاع السلي الهادي الذي تلجأ اليه كلما حزننا حقائق الحياة واحرجنا حوادثها . ونحن قلنا نطعن الى اثر هذه الزعة في حياتنا لانا نرغب دائماً ان نظهر بظهر الاوصاف والتجرد في التفكير ، ولا تأنحب ونحب الناس ان تختلص من انانيتنا القديمة الصالحة والدفاع عن النفس على هذا النحو قد يتخذ صفة الاعتدال او المبالغة . فان كانت الاولى فهو مقبول مُساع الى حد ما . وفيه يوفق المرء بين احوال نفسه الراحة وبين حقائق العالم الخارجي ، فينشأ من ذلك نوع من الاتزان يريحه من كثير من انواع القلق النفسي الحض . ولكن اذا بالغ المرء في الفهم عن نفسه والدفاع عنها فهناك الخطر ان لا يعود يرى في نفسه الا انه فجة لفظة الناس وجهلهم . وينزل منه هذا الهم منزلة اليقين ، فتصبح حياته زاعماً عتيقاً ، ويتولاه مقت شديد للناس يدنو به من حدود الوسواس او الجنون المطبق . ونحن لا نرغب ان نعالج الا هذا الجانب المعتدل من الدفاع عن النفس ، لان الجانب الآخر هو في الحقيقة من اختصاص طبيب الامراض العقلية

اما الدوايح الاساسية لهذه الزعة فهي الشعور بالنقص والحربان من جهة وما نطرقنا عليه من كره للنقص وحب للكمال من جهة ثانية . فبواعث هذه الزعة اذاً موجودة في كل فرد لان كل فرد ، باعتبار النقص ، ناقص وكل فرد يسعى على تحوير ما ، ليند هذا النقص او ليخفيه عن نفسه على الاقل ، لانه يؤثنا ويقض مضاجعنا ان نرى معائبنا باذية في كل آن امام وجوهنا . ومن هنا نرانا لانالو جهداً ولا ندرج وسعاً في ازالتها . واذا اعجزنا ذلك فلا اقل من ان نمرها بما يخفي قبحها فتبدو مكتسية بنوب الكمال ومظاهر الدفاع عن النفس شتى لاتقع تحت حصر . بعضها يسهل ارجاعه الى مصدره

وإنه من الآخر لا يظهر إلا بالتدبر الشديد والتجرد المطلق ، لا سيما أن بعض المنظر التي يتخذها الدفاع عن النفس ينتهي بمواجهته مع التكرار الكثير بالافتتاح ، فلا يعود المرء يشعر أنه إنما يدافع عن خطئه أو غفلة يشعر هو بشذوذها وببوحها . فتجده يتحدث إلى الناس وإلى نفسه كأنه الأمر الذي يتحدث فيه أمر واقع وفي الصميم من الحق والصواب

من الاشكال العديدة التي يتخذها الدفاع عن النفس انتقاص الغير والتفيل من شأنه سواء اكان المنتقص شاعراً بالحافز له على ذلك أم غير شاعر . فحينما يبلغ شعور المرء بالانتقص حداً بعيداً ويوقن أنه لا قبل له بالحقاق بمواجهته . ولكنه يرى أنه يستطيع ان يطعن من منزلتهم ، ويصح همومها الأزال من قدرهم فقط ، ولا يمتيه بعدها أرفع نفسه أم ابقاها في مترواها الذي تضطرب فيه . فالمسألة تصبح عنده مسألة مسافة فقط . والذي يصدّه غالباً عن السير صعداً هو ما كان من تضخيمه لبعد الشقة بينه وبين هؤلاء المواجهين عما يشه من الحقائق بهم أو على الأقل ، من الدنوا منهم

ولكن اذا لاحظ المرء أنه لا يستطيع ، بوسيلة من الوسائل ، أن يوطئ من قدر غيره من همومه منه ليتفجع على تفقهمه ، يصبح همومه اقضاء هذا الغير عنه بالتاء عليهم والاعظام من شأنهم ليصبح له المنزلة الكافية ، أمام نفسه وأمام الناس ، في عدم الالتحاق بهم . فكتاب فقير مثلاً يندر جداً ان يهجم على شكبير ، بينما برناردشو واثانول فرانس ينتقدانه انتقاداً مرأ . على ان هذا لا يعني مطلقاً ان كل حافز الانتقاد هو الدفاع عن النفس . ولكن ، الملاحظة فيه ان قسطاً كبيراً من الانتقاد مرده الدفاع عن النفس . والذي يزيدنا اقتناعاً بهذا ان المرء كلما به شأنه وابتعد عن ان تطوله سهام المتفدين قلت عنايته بالانتقاد

وزداد التباغض والاضطغان بين المتنافسين كلما كان أساس المفاضلة بينهم قريباً من الاشتراك ، لان ذلك يساعد الناس في الموازنة والترجيح . وهذا يفسر لماذا لا يخجل الاديب العالم والعالم السياسي مثلاً ، في العالم قد يخجل العالم والسياسي قد يخجل السياسي . ذلك ان العالم والعالم او السياسي والسياسي يتباريان في جهة واحدة ونحو هدف واحد تقريباً ، مما يسهل على الناس تعيين المجلي من المصلي . وهذا بدوره يجعلهما مجعدين في الاستباق والمغالبة

وكما يكون الدفاع عن النفس بانتقاص الغير لتقريب المسافة بين المنتقص والمتنقص ، فعلاً ، أو بالحجاء ، كذلك يكون الدفاع عن النفس برفع النفس وتمجيدها . ويتخذ ذلك اشكالا متعددة لا نراها نستطيع قصصها كلها ولكننا نكتفي بشكل واحد منها هو اشد

هذه الاشكال بروزاً واكثرها تلويحاً لحياتنا وهو تمجيد المرء مواهبه العقلية . وفي الواقع ان اشد ما يعنى به المرء ويتوسل له بجميع الوسائل هو اثبات تفرقه العقلي . ولم ار امرءاً احرم من على شيء منه على اثبات سمو مداركه وفضل عقله . وتلاميذ المدارس هم على العموم اكثر الناس غاية بذلك . ذلك ان محيط المدرسة الفكرية وتقارب الصفات العقلية بين التلاميذ (بالنسبة لاي مجموع آخر خارج المدرسة) واشتركا في الهدف يذكي روح الزاحم بينهم في هذه الناحية . والذي لاحظته ان التلميذ قد يضحي بكل شيء حتى بسعته الادبية كيلا يكون سبيل الى اتهامه بالتخلف الذهني . وليس بانادار ان تسمع تلميذاً متخلفاً عنهم نفسه بمختلف التهم لكي يفني كل شك يحوم حول مواهبه العقلية . فالتلميذ الذي يبرزو تخلفه الى الكلبي او ضعف الذاكرة او رفقته السوء او الانهاس بأنواع الرذائل قد يجده في كثير من المدارس ، ولكن يندر جداً ان نجد التلميذ الذي يقر صراحة بالبلادة ويبرزو اليها تخلفه . ولا امر ما لا يقر التلاميذ بعدد الساعات التي يقضونها فضلاً في الدرس والتحضير ، هذا بالرغم عما يسمونه ويترأونه كل يوم من ثناء على فضيلة الجد والمثابرة

على أنه اذا لم يستطع المرء ان يترأعناً وامام الناس بتخلفه الذهني فلا يسه في بعض الاحيان الا ان يقر بذلك امام نفسه حينما تفييه الحيل وتد عليه جميع المسالك ليقنع نفسه انه ليس كذلك . وهذا الاقرار قد يكون عن حق او موهوماً . فان كانت الاولى ثابت صاحبنا يتخذ غالباً جانب الاعتدال في مقامه فيرجح ويستريح . وان كانت الثانية فهناك احد امرين : اما ان ينجح في مقامه الى الاعتدال او ما هو دون الاعتدال ، او التمويض بطريق الجد والمثابرة عما يعتقد انه ينقصه من جانب القدرة الطبيعية . وفي هذه الحالة الاخيرة ، حينما يقتن الجد بالذكاء ، يصنع المرء السجائب . وقد ندحشه مثل هذه النتيجة فيمزو نجاحه مخلصاً الى جده واجتهاده . ولعل هذا يفسر كثيراً مما نقرأه عن رجال العلم والمال من عزوهم نجاحهم الى المثابرة والاجتهاد . وعلى كل لا يجرؤ هؤلاء على البوح بما يعتقدون أنه السبب الاقوى في نجاحهم الا متى انقنوا ان ذلك لا يؤثر في تقدير الناس لمواهبهم وكالفردي الجماعة من حيث الاثر الذي تخلفه الشعور بالتخلف الذهني . فاذا شعرت الجماعة ، لسبب ما ، بالنقص في هذه الناحية فقامت تحمى ، اذا ساعدت احوال المحيط ، التعويض عن ذلك بالكد والعن . وهذا يفسر الى حد ما تفوق الطلاب الزوج والصينيين في كثير من مدارس اميركا . ومن علماء الاجتماع (الدكتور ملر استاذ علم الاجتماع في إحدى جامعات اميركا) من يعتقد ان الشعب الذي سيكون له اوفر حظ في التقدم النسبي في اميركا هو الشعب الزنجي . وهم يعتقدون ايضاً ان الصينيين سوف يقدرون العالم في عالمي العلم والسر ان لهذا السبب

وقد لا يجري فعل التعويض مجرى عملياً ، فيظهر بمظاهر مختلفة : منها ما يكون سليم الباقية على صاحبه ومنها ما يكون ويلها . فمن أبواب التعويض غير السلي ان يعد المرء حيناً يحس بالتقص ، الى الخيال ويسخره . ليم هذا التقص . وقد يلج خياله بفعل التعويض فيصبح ، وهو الصلوك ، الأمر الناهي ويضحي ، وهو الخيان الرعديد ، الشجاع الذي ينصر الغير ظالماً أو مظلوماً . وإذا اسرف المرء في هذا النوع من الدفع عن النفس — وإذا شئت هذا التحدير العقلي — فلا شك ان ذلك يكون اول بوادر الخيول . ونحب ان نلاحظ هنا ان امرنا هذا حاله يكون بالمثل سعيداً ، لأنه يبتش دائماً في عالم بينه خيال جامع لشيء في أقصى حدود النشاط بسهل عليه تحية كل ألم واحساس بالحرمان . وانفقصور التي ينسبها خياله تحمل عنده تحمل الحقيقة الواقعة . ومن هنا صدق القول بان المجانين هم اسعد الناس وقرب من هذا ما نراه في الاطفال من ميل شديد الى تصديق كل ما يعرض عليهم من اخبار البطولة والاستمتاع بأنواع اللذة . والاطفال هم على الاجمال ، اول من يؤخذ بأوصاف الجنة وأخبار المخاطرات . ذلك ان خيالهم يضحهم لهم سعة مشيياتهم وعجزهم يقعد بهم عن نيلها ، فينشأ في نفوسهم هذا الميل الشديد الى اخبار البطولة والاستمتاع بالذلة ، لان هذين هما اول ما يشغل عقولهم الفتيّة . والملاحظ انه كلما ازداد سعي الفرد والامة ونالا من اسباب العز والرفاه قل تأثرهما بما توصف به الجنات وما يوعد به الابرار الصالحون . ولعل هذا يفسر قول السيد المسيح دخول الخطي في سم الحياض أعون من دخول النهي ملكوت السماوات . ومن الملاحظ الجلي ايضاً ان المرأة ، كالاطفال ، تأسرهما الروايات الممثلة في الخيال . وهذا ليس امراً عارضاً : انما هو تمييز صامت عن شعورها بالضيق ومقياس لمقدار ما تشبه من قوة ونفوذ تعويض عن ذلك بطريق الخيال

ثم هناك نوع غريب من التعويض يظهر في رفقة المتناقضين من الناس في الصفات العقلية او الخلقية فكان أحدهما يوضح عما هو مستقر في نفسه من احساس بالتقص في إحدى الصفات باصالة بين فضله في هذه الصفة ، كأنه يحس بأن صفة هذا الشخص المشتهة تفسره وتتكس عنه لدى اتصاله به . اما هذا الشخص ذو الصفة المشتهة فهو لا يميل بادئ الامر الى محبة ذاك ولكنه ازاء اخلاصه والخاصة لا يسمه الا الزول على شهوده . ومن هنا يجب ان نكون حذرين حيناً نقول ان القرين يعرف من مقارنته

ومظهر آخر للتعويض يتمثل ذلك الصنف من الكتاب الذي تخلو كتاباتهم من كل عميق وابتكار ، فيسودون ، ليخفوا هذا السبب ، الى البرهجة النقطية وينصرفون عن التراكم المنسجة والالفاظ المأثورة الى التقييد والاغراب . ويحشدون بهذه كلها كتاباتهم فتبدو

كأنها معاجم وذواوين لغة جمعت للاستشهاد بها على شواذ اللغة وشواردها : يهولون بهذه البعاعة الزائفة على القراء كما يهول الحواة على الشاهدين بتقليبهم حياتهم ومنشأهم وبين أيديهم . وقد تقرأ الفصل أو المقال لهذا النصف من الكتاب ، فتجد أن شروح الالفاظ تختل من الكتاب أو الصحيفة أكثر مما يحتله المتن . وقد يدهشك بأدب بدء أن تراءم يجرؤون على عرض مثل هذه البعاعة على القراء في عصر المقام الأول فيہ للعاني . ولكن متى علمت أن الدافع لهم على ذلك هو دافع نفسي عميق تخضع له أنت وأنا وهم على السواء — متى علمت ذلك عذرتهم بعض العذر : أقول بعض العذر ، لأنه كان أولى بهم أن ينصرفوا عن الكتابة بأننا إلى ما هو أجدي لهم ولناس كهواة صناعة أو تجارة أو ما هو إلى ذلك مما يستطيعون أن يذروا فيه .



واتهام المرء غيره واشراكه بما يحسه هو من نقص ، شكل آخر عام يتخذه الدفاع عن النفس . ومظاهر هذا الشكل حتى لا يحيط بها نقص ، نذكر منها ما نراه في اناس مخصوصين من مقت شديد لانواع من الرذائل هم اول فحايها . فتراهم يشقون اصحابها ويهاجمونهم مهاجة عنيفة ويوسعونهم لوماً وتشهيراً . فيوجد هذا فيهم نوعاً من الاطشأن عصالهم مع قلوبهم ، لأنه يوجد لهم شركاء عديدين في ذنوبهم يذنبهم هم كما هو يتعذب . وينسى البعض الدافع الحقيقي لهم على ذلك فيعتقدون أنهم ينصرون القضية فقط من اجل القضية ولنا امثلة كثيرة على هذا النوع من الناس في تاريخ الاصلاح الديني والسياسي والاجتماعي . وما لا شك فيه ان قسماً وافراً من النجاح الذي يلاقيه رجال الاصلاح المرتدين من دين الى دين ومن مذهب سياسي او اجتماعي الى مذهب آخر مرجعه ، في الاكثر ، هذه القوة المسترة التي يحولونها من طريق الاحتصاص مع النفس الى الاحتصاص مع الغير .

والشيوخ (بعض الشيوخ) يذمون دائماً على الشباب انحطاط الاخلاق والالتماس بالملاذ الجسدية والملح الزائفة (وقد كانوا يوماً شباباً) لا لأن الشباب هم حقيقة كما يصورون ، بل لان هؤلاء الشيوخ — ورجوان لا يفضوا — يشتهون ولا سبيل اليها يشتهون . والليل الذي يظهره البعض الى الزهد والتخفف قد لا يكون له من اساس الا طلب المتعة من جهة والجزع عن نياها من جهة أخرى . فينطبق عليهم مثل الثعلب والضب

والجاهل لا تتأهل مع الخطيب الذي يشدد في قلوبها ويغني يمدد معائبها وهفواتها واحدة واحدة الا لأن كل فرد يحب ان يسمع غيره يشتم بعض التهم التي يسم هو بها نفسه ليصبح له شركاء في ذنوبه التي تلبه الراحة والاطشأن . فالدافع الاساسي الذي يدفع

الجاهل الى التصديق لخطيب الذي يسرف في تأنيدها لا يرجح ، في معتقدا ، الى ان كل فرد يجب ان يؤنب لما لان في كلام الخطيب اتهام عام للجمهور . فيصبح هذا الجمهور شريكاً لكل صاحب ذنب ورذيلة في ذنبه ورذيلته . وهذا به شيئاً من الاطشانة وراحة الضمير . وإذا كان القارئ في شك من كلامي ، وكان ممن مارس الخطابة ، فليؤنب جمهوراً في شيء ما ثم ليكلّمهم أفراداً بعض ما تكلم لهم به محتمين ولبراً بعدما هل ينجم من لدغ كلامهم اذا لعف المولى ونجا من قبضات ايديهم . وتبلغ اذنية الجمهور حداً يجعله يتعاض من الخطيب الذي يزل عليه مفرعاً بصفة الخطيب مخرجاً نفسه من دائرة الاتهام . والذي لاحظته ان الخطيب الذي يزل كلامه الى قراءة النورس هو الخطيب الذي ينادي : « نحن » وليس « اتم » . ثم نحن نبيح لاثنتا ان ننفذ اثنتا ونههما بمختلف التهم مبتدئين او مسرفين . ولكن حيناً يحى هذا الاستفاد عن طريق الغير فتبه حلاً غريزة الدفاع عن النفس قهراً لدفع التهمة ، او على الاقل ، اشراك التهمة بها . ولعل القارئ يذكر قصة ذلك الشاب الذي جلس الى كاهن يكشف له عن حبايا نفسه ويعترف له بالزلة اثر الزلة . فلما انتهى نظر اليه الكاهن نظرة الارتياع وقال : اشكر المولى انك قلت الحقيقة ولم تخف علي شيئاً . فاكاد بلفظها حتى حلق في شابنا حلاقة الغضب وقال : بالرغم عن صفواني وزلاتي كلها اراني اظن انني نفساً وأقل وزراً منك ايها الكاهن الشرير !

هذه بعض مظاهر الدفاع عن النفس — اقول (بعض) مظاهره ، لاني والحق يقال لم ادر زعة اكثر تشبهاً واهمق اثرأ في توجيه سلوكنا من هذه الزعة . ليعمد القارئ الى نفسه يوماً او بض يوم — اذا شاء — وليجر عليها هذا الاختبار البسيط : يدون كل قول او عمل او فكر من افكاره ، ثم لينظر آخر النهار في دفتره وليفحص بتجرد (واخلاص) الدوافع التي دفنت الى كل ذلك . انني موقن بأنه سيبي ان اكثر ما فكر به او قاله او عمله في يومه هذا كان تالكاً منه على تبرير نفسه وغسلها بما الصقه بها هو وغيره من ثمم مقلقة . وانا شديد اليقين ايضاً بأن اكثر ما يقال من على الشارب وما تخرجه المطابع هو دفاع مباشر او غير مباشر عن النفس وما يمت إليها كالدفاع عن الدين او الوطن . ولو اتيح لنا ان نترز من مكتبات العالم منشآت الفكر التي كان الدافع اليها زعة الدفاع عن النفس لتقلصت هذه المكتبات الى نصفها او ما هو اقل من ذلك

بعد هذا هل يحق لنا ان ندعي اننا نفكر تفكيراً صحيحاً مستقلاً عن اهواء النفس ونوازعها ؟ يجب القارئ ، تهه اذا شاء